بنية النقد النيتشوي للفلسفة الغربية

م.د. محمد هاتو عزيز

جامعة بغداد / كلية الآداب/ قسم الفلسفة

mohammed.h@coart.uobaghdad.edu.iq

الملخص:

لم تكن قاعدة النقد التي انطلق منها نيتشه قائمة على التأثر بالفلسفات الكلاسيكية أو فلسفات التنوير وعصر النهضة، وما أفرزته من أيديولوجيات كبيرة ، بل إنه انطلق من تحليل جينالوجي للذات الغربية التي تمثل بيئته الشخصية، بمعنى أنه قام بإجراء تحليل لذته، كاشفا بذلك، عن أمراض فكرية قد أصيب بها، نتيجة تأثره السابق بالفلسفات الميتافيزيقية ولحظاتها العدمية، وقد استنتج من خلال دراسته، أن المعرفة تتحقق من تهديم للمعارف السابقة علينا، وبناء معرفة جديدة، قائمة على مباشرة الطبيعة والحياة.

الكلمات المفتاحية: (بنية النقد، النيتشوي، الفلسفة الغربية).

The Structure of The Nietzschean Criticism Of Western Philosophy

Prof . asst. Dr.. Mohamed Hato Aziz

University of Baghdad / College of Arts / Department of Philosophy

Abstract:

The base of criticism from which Nietzsche started was not based on being influenced by the classical philosophies or the philosophies of the Enlightenment and the Renaissance, and the great ideologies they produced. Intellectual procedures he had, as a result of his previous influence on metaphysical philosophies and their nihilistic moments, and he concluded through his study, that knowledge is achieved by destroying previous knowledge on us, and building new knowledge, based on the directness of nature and life.

Keywords: (The Structure of Criticism, Nietzsche, Western Philosophy).

المقدمة

نيتشه وبنية الذات النتشوية.

تنطلق بنية الذات النتشوية من أصل مزدوج ، هذا الأصل يبرز طابع نتشه المتفرد عن غيره من الفلاسفة . وقد عبر نتشه عن هذا الطابع المزدوج بقوله:

((أنا ميت في هيئة أبي، حي في هيئة أمي، وسأعيش طويلاً واعرف الشيخوخة، هذا الأصل المزدوج المرتبط بأعلى درجة في سلم الحياة وأسفل درجة فيه تدهور وبداية في الآن نفسه، ذلك هو ما يفسر أكثر من أي شيء، ذلك الحياد وتلك الاستقلالية تجاه المشكل الجملي للحياة، التي يمكن اعتبارها ميزتي الخاصة)) (١).

كشف هذا لنص الرائع بنية التاريخ المزدوج لحياة نتشه ، القائم على التعارضات المزدوجة مثل : (ميت/حي) و (أبي/أمي) و (أعلى/أسفل) و (التدهور/البداية) ،الذي اختتمه باستقلاليته عن الفكر الفلسفي منذ افلاطون إلى عصره الذي برز به كفيلسوف (استقلاليته تجاه المشكل الجملي للحياة) ، والمشكل الجملي له ارتباط في تقسيم نتشه لمراحل العقل في كتابه زرادشت، حينما قسم العقل إلى: (جمل ، وأسد، وطفل) ، وقد أعطى لكل قسم وظيفته في الحياة.

فمرحلة (الجمل) هي تلك المرحلة التي واجهها نتشه ويقصد بها حمل الفلاسفة للأخلاق السقراطية والمسيحية التي قضت على تعددية الحياة وصيرورتها. لأن نتشه يقف موقفاً استقلالياً تجاه حمل الحياة على الأخلاق والفضيلة. ذلك ما يبين سبب ازدواجه ، فأبوه من أصل بولوني وأمه من أصل ألماني، وهو يمجد أصله البولوني ويحقد على الأصل الألماني، لأن الأصل الألماني برأيه يقضي على صيرورة الحياة، فيقول : ((حيثما حل الألمان تكدر صفو الثقافة، بإمكاننا فهم أصل العقل الألماني، عقل طالع من أمعاء كدرة .. العقل الألماني يمثل حالة سوء هضم، انه لا يستطيع أن يحسم في أي شيء.. أنه يبدو لي كما لو أنه يمنح العقل قدمين ثقيلتين، لقد حرم

الألمان أوروبا من جني ثمار العصر التاريخي العظيم الأخير، عصر النهضة... الألمان هم (نظام القيم العالمي) داخل التاريخ.. معيدو إرساء الأخلاق و (أمر الوجوب القطعي) بالنسبة للقرن الثامن عشر)) (٢).

ولأن الألمان اعتمدوا في ثقافتهم على تبني الثقافة المسيحية فيقول نتشه: ((إنهم يتحملون مسؤولية كل الجرائم الكبرى التي ارتكبت خلال أربعة قرون من الزمن – يعود ذلك دوما إلى السبب ذاته ، وهو الجبن المتأصل فيهم ، جبنهم تجاه الواقع الذي هو جبنهم أمام الحقيقة ، والسبب في ذلك هو عدم الصدق الذي تحول إلى غريزة لديهم أي مثاليتهم)) (٣).

كما يزداد نتشه تذمرا بحق الألمان فيقول: ((من سعى مثلي طويلاً، مدفوعاً برغبة ملغزة إلى أن يفكر التشاؤم إلى قعر قعره وان يخلصه من الضيق والحمق نصف المسيحي ونصف الألماني...)) (٤) . ولهذا السبب ظهرت حياة نتشه المزدوجة وسبب شقائه ، فهو يقارن بين تدهور حياة أبيه في سن السادسة والثلاثين ، وتدهور حالته في السن نفسه فيقول: ((في السنة السادسة والثلاثين هبطت حيويتي إلى مستواها الأدنى ، كنت أحيا لكن دون القدرة على النظر على بعد ثلاثة أمتار أمامي)) (٥) .

إن بنية تفكير نتشه قائمة على هذا التعارض الذي يظهر في اغلب نصوصه (كنت أحيا ولكن دون القدرة)، وهذا ما بعث فيه أن يقيم تفكيره على قاعدة مباشرة للحياة، وهي قاعدة (الألم) الذي يتجدد داخله بصورة مستمرة بتجدد موقفه المستقل عن اتجاه المشكل الجملي للحياة (الأخلاق والقيم الزهدية) عند سقراط، وأفلاطون والمسيحية .

إذن فإن الآلية التي اعتمدها نتشه لدراسة الحياة بغض النظر عن الدراسات السابقة، وهي آلية فنية قريبة ومباشرة للحياة، هي آلية ذاتية من نتاج الحياة، أي (الألم)

الذي عبر عنه نتشه في أدق صوره، وهو الشعور بتناقضات الحياة وصيرورتها وتعدديتها، فكان الألم منطق تذوقه للحياة والأفكار ولمأساوية الفلسفات.

تطور غريزة فهم الطبيعة والواقع عند نيتشه

استطاع نتشه أن يتخطى ألمه بشجاعة فائقة، ليصف المراحل التي تطورت فيها غريزة الفهم لديه ، ويذكر كذلك، بداية تطوير ذلك الأسلوب بعد مروره بفترة طويلة من الخمول الغريزي والفكري: ((في تلك الفترة اتخذت غريزتي قرارها القاطع ضد التمادي في الإذعان والمسايرة واشتباهي في هويتي، أي نوع من الحياة ، الظروف القاسية والمرض والفقر، كلها بدت لي أحب من ذلك التنكر للذات، السلوك الرخيص الذي وقعت فيه عن جهل وطيش شباب في البداية ، ثم بقيت حبيساً داخله في ما بعد بسبب الخمول وبدعوى ما يزعم أنه (إحساس بالواجب))) [٦] .

وصف نيتشه هذه الفترة في كتابه (هكذا تكلم زرادشت) في مرحلة تحويل العقل إلى جمل أي انتدابه تحت وصاية الأخلاق المسيحية التي كانت في بداية تعليمه ، وهذا الوصف يعد من الأوصاف الجمالية في نظرته لحياته السابقة . وذلك عندما خرج زرادشت من عزلته والعزلة بمفهوم نتشه هي (العود الأبدي أو الحياة) ذلك لأنه يعد خروجه من العزلة خيانة للحياة.

فيقول عندما خرج زرادشت من هذه العزلة أي طفولته: ((لمّا بلغ زارا الثلاثين من عمره، هجر وطنه وبحيرته، وسار إلى الجبل حيث أقام عشر سنوات يتمتع بعزلته وتفكيره إلى أن تبدلت سريرته)) [٧].

ويقول في الجزء الثالث في قسم العودة: ((أنت وطني ، أيتها العزلة، لقد طال اغترابي في بلاد المتوحشين فها أنا ذا أعود إليها أيها الوطن وعيناي تذرفان الدموع))[٨].

أن خروج زرادشت من هذه العزلة تأتي بمعنى اغترابه عن الحياة، ودخوله في عالم الثقافة الذي بدا له في نهاية رحلته هو عالم متوحش، وعنف شديد، كما أن (البحيرة) ترمز إلى الواقع القريب للأرض وللوطن ، ويرمز (الجبل) أيضا إلى مستوى ارتفاعه عن البحر، ارتفاعه إلى فلسفات الأخلاق والقيم المثالية وابتعاده عن واقعه. أما النص الآخر فيصف فيه نيتشه العود الأبدي لهذا الوطن (للأصل) ولهذا فان أنغام الندم تتضح في هذه العودة فيقول نيتشه على لسان زرادشت ملتمس العفو من الحياة: ((ارفعي شاهدك وهدديني ، أيتها العزلة ، تهديد الأم وانظري إلي مبتسمة بابتسامها ، وسليني عن حال من هرب منك إلى بعيد كأنه العاصفة الجامحة)) [٩].

ويصف نيتشه طبيعة تطور حاسة ذوقه، وتفننها في كسر أنماط الفهم العدمي للحياة، وما اكسبه الألم من رهافة في الإحساس: ((وفي خضم محنة العذابات التي سببتها لي ثلاثة أيام من الصداع الحاد المرفق بغثيان متواصل مجهد كنت أتمتع بوضوح جدلي خالص وأفكر ببرودة في أمور ما كنت في حالة العافية لامتلك لها ما يكفي من البرودة والرهافة والقدرة على تسلق الأعالي)) [١٠].

ويذكر نيتشه وصوله إلى تطوير إمكانيته العلمية الذي رافق ارتفاع شدة الألم عنده: ((ما من إصابة عضوية في المعدة كنتيجة للانهماك الجسدي والضعف الأقصى للجهاز الهضمي ، وحتى آلام العينين التي تجعلني في بعض الأحيان مهدداً بفقد البصر هي أيضا ليست سوى نتيجة لا سبباً. إذ كلما نمت طاقاتي الحيوية وانتعشت من جديد إلاّ وانتعشت قدراتي البصرية أيضا، إن سلسلة من السنوات، سلسلة سنوات عديدة تعادل لدي صيرورة الشفاء...)) [١١].

إن الفهم لفن إجادة الأسلوب ومحاولة اكتشاف منهج طبيعي يتعامل مع الحياة بالحياة أكسب نيتشه مهارة في معرفة مفهوم العقل، الذي أختلف به عن مفهوم العقل عند الفلاسفة الآخرين، ذلك ما دعاه إلى تقسيم العقل إلى قسمين:

العقل الأكبر: وهو الجسد المباشر للطبيعة والدليل الحقيقي على صيرورة الحياة لأنه قابل للتغيير من التطور والتدهور.

العقل الأصغر: ويقصد به نيتشه، العقل الإنساني الذي تحدث عنه الفلاسفة وكان هذا العقل – برأي نتشه – غافلاً خلال فترة طويلة من تاريخ الفلسفة ، وهذا العقل لم ينتبه من غفلته هذه إلا عندما يتعرض العقل الأكبر (الجسد) إلى خطر يهدد حياته من مرض أو موت ، وهذا ما نوه إليه هيجل أيضا في تعرض (العبد) إلى خطر السيد المطلق (الموت) أي فقدان الحياة، وقد ذكره نتشه في معرض حديثه عن ما ورثه من والده وهو خطر الموت المبكر. فإذا تألم الجسد (العقل الأكبر) فالعقل الأصغر لابد متأثر بما نزل بالعقل الأكبر فيقول نتشه ((إن السقم زادني احتراساً وانتباهاً من سلطة الأخيلة والأوهام التي تتولد عادة عند من راقتهم صفحة الحياة وبهجة الدنيا . ... أجل ! إنني أدرك أن الألم لا يحمل الإنسان إلى المقام الأحسن، ولكن الألم ينحدر بنا إلى أعماقنا)) (١٢).

إن الألم أعطى لنيتشه قدرة لاكتشاف منهج لمعرفة أسرار الحياة، فالألم علمه أن يبلغ تأثير الانحطاط الجسماني في عقل المفكر، وأدرك أيضا، كيف يسعى الألم إلى قهر عزة العقل الفلسفي، وردّ هذه العزة ضعفاً وذلة وخوفاً وكآبة، وأدرك ما هي الموضوعات والزوايا السماوية التي يلجأ إليها المرضى والمنحطين سعياً وراء ما يخفف عنهم من فاقتهم وكآبتهم (١٣).

ويقول نيتشه أيضا: ((إلا أنني اكتشفت حياة جديدة، اكتشفت نفسي، إنني قد تجرعت الأشياء الكبيرة كما رشفت الصغيرة منها، وجعلت من رغبتي في الشفاء والحياة كل فلسفتي، حذار جميعا ! إن الأعوام التي انحطت فيها حيويتي هي الأعوام التي طلقت فيها تشاؤمي...)) (١٤).

ظهرت مزايا مهمة للألم في حياة نيتشه، فقد اكسبه قدرة على تمييز ما حوله، فأول نعمة اكتسبها من الألم : انه أنقذه من مهنة التعليم (دراسة اللغات المندثرة)، فقد شعر بأن وفائه لهذه المهنة دفعه إلى قتل ازهي أيامه وتعطيل دراساته، كان من أفضال الألم أيضا تحطيم كل حلقة تربطه بالماضي الذي أصبح بعد أن كان عزيزاً – بعده غريباً عنه وهو منه . وهذا الارتباط بالماضي قد اصطلح عليه فيما بعد (بالعدمية) (رفض الفلسفات القائمة على قيم زهدية) (١٥).

كتب نتشه ما توصل إليه بقوله: ((حتى تلك الإجادة لفن اللمس والفهم عامة، وذلك الحس المرهف للفوارق الدقيقة ، وتلك الخبرة النفسية بفن المداورة ، وكل الخصال التي تميزني، هي كلها مما تعلمته آنذاك ، وهي الهبة الحقيقية لتلك الفترة الزمنية التي غدا فيها كل شيء لدي أكثر رهافة : المعاينة وكذلك أعضاء المعاينة)) (١٦).

تتعدد زاوية الرؤية عند نيتشه، فالمرض يغير طعم الأشياء ومذاقها، لذلك تجد نيتشه اخذ ينظر إلى القيم الصحية من زاوية نظر المريض، ولا يقصد نتشه من ذلك، أن هذه القيم هي صحيحة، بل بالعكس هي قيم خاطئة، كان أصحابها في حالة من التبعية لأمراض كانت منتشرة آنذاك.

إن قلب قيم الفلسفات، وقلب قراءة المفاهيم التي تبنتها فلسفات العقل، تظهر الجانب الآخر من الحياة، وهي الغرائز الإنسانية الأخرى ، لأن وجودها لم يكن بالقوة، بل كان فعلا يتسرب في الطبيعة وكانت آثاره في الحروب واختلاف الرأي والأمراض العقلية .... الخ . لهذا السبب كانت قراءة نتشه للواقع – واقع الكتابات أو الواقع الفعلي – هي فن إثارة الغريزة في العقل، فتنتقلب إزاء ذلك القراءة من قراءة عقلية إلى قراءة غريزية، تكون مصحوبة بلذة تجاه ما يلاحظ من الأشياء أو الكتابات ، فتنتفى بالنسبة لنيتشه، تبعية الحياة لسلطة العقل.

هذه القراءة الغريزية للفلسفات تكون قراءة متحررة من القيود والتبعية، وإظهار المسكوت عنه، ولم يسمح له بالكلام أن يتكلم ومن دون قيد أو ترقب، فالنظر إلى المفاهيم والقيم الصحية من خلال المرض وعكس العملية، وذلك إثراء الحياة داخل الوعي والهبوط لغرائز الانحطاط كان ذلك اكبر اختبار لنيتشه . أي أن نظرة نتشه تنطلق من منطق وعي ذاتي للحياة قائم على زاوية حادة وخطيرة (على هاوية العمل السري لغرائز الانحطاط) متجهة نحو رفض المنطق العام ومجابهته بالمنطق الخاص السري الذي يحتفظ به كل شخص لذاته ولا يحبذ إظهاره للعامة . أي ما أضمره من غرائز تعد خطيرة ومحرمة وممنوعة بالنسبة للجميع، ((لقد تملكت بالأمر وغدت لدي اليوم الخبرة ، التي تمكنني من تحويل زوايا الرؤية انه السبب الأول الذي بإمكانه أن يجعلني الوحيد المؤهل لمهمة قلب القيم)) [١٧] .

إن فن تصميم الحياة على منطق لا عقلي جاء مطابقا لمؤلفات نيتشه مساوية لمنطقه الذاتي القائم على فن إدراكه لصغائر الأشياء يقول نيتشه: ((كنت في الدرك الأسفل آنذاك، وقد جاء كتاب (المسافر وظله) من نتاج تلك الفترة وكنت عندها دون شك ذا خبرة بأمر الأشباح .. خلال الشتاء اللاحق ، أول شتاء لي بجنوة ، تمخضت تلك الرقة وشفافية الروح الناجمة على ما اعتقد ، عن فقر مشط في الدم، ووهن العضلات عن مؤلف (الفجر) إن الوضوح التام والبهجة المطلقة ، وكذلك التوهج الفكري التي يعكسها ذلك المؤلف تتلاءم لدي لا مع الحالة القصوى للضعف الجسدي فحسب، بل وكذلك مع أقصى درجات الألم)) [١٨] .

إن الملاحظ الفطن حينما يقرأ حياة نيتشه، يرى أن نيتشه يكتب من خلال تجربته تلك سيرة ذاتية لتاريخ الألم، وكيف أن الألم يلقب ميزان رؤية الأشياء بمنطق العقل، وكيف أن الألم يطور الأسلوب، ويخلق فن الذوق المرهف، وكيف أن نيتشه جعل نفسه مختبراً لاكتشاف ذلك الأسلوب الذي لم يكتشفه غيره (قدرة على قلب

القيم)، وكيف أن القراءة كانت مصحوبة بمرارة من الإحساس بالألم تجاه الحياة ، وقد ظهر ذلك جلياً عند سماعة لإحدى مقطوعات فاغنر الموسيقي الألماني، يقول نيتشه: ما الذي يؤلمني بالذات إن كنت متألماً لمصير الموسيقى ؟ يؤلمني تنكر الموسيقى لطابعها الاثباتي المشع – أي موسيقى قائمة على أخلاق مسيحية وألمانية – بحيث غدت موسيقى انحطاط وكفت عن كونها ناي ديونيزوس – أي موسيقى حرة تعددية تساوي الحياة – على اعتبار أن ديونيزوس هو إله الخمر والرقص في الأساطير اليونانية والرومانية. وهو لا ينضبط تحت أخلاق دينية وقيود زهدية [١٩].

يرى نيتشه أن فاغنر في هذه المقطوعة كان ذو أخلاق مسيحية وقومية ألمانية، فالتفحص الشديد الذي أجراه نتشه على أطوار مرضه المختلفة ساعده على تشخيص بعض إمراض أوربا (المتهرئة) أفضل مما كان باستطاعة شخص أكثر صحة أن يقوم به، زد على ذلك إن اختياره لمعالجة شديدة لنفسه جعله يبتكر لأوروبا وللإنسانية في الواقع علاجاً كان أشد من التدابير المضادة التي جابه بها مرضه [٢٠].

إرادة القوة ومشروع تدمير العدمية

إن الهدف من القول بإرادة القوة هو وضع مشروعا فنيا لتدمير العدمية التي وضعتها الفلسفات القديمة، نحاول من خلال هذه الدراسة قراءة لبنية العدمية عند نيتشه، وذلك لرسم صورة جديدة للعالم مع نتشه عندما أراد من فكرة إرادة القوة قلب الصورة القديمة التي كنا نطل من خلالها لفهم العالم.

إن العدمية هي مشروع نفي الحياة والحط من قدر الوجود عند نيتشه[٢١] . وهي عكس ما يظن أنها وسيلة حفظ الحياة فهي مبدأ حفظ حياة ضعيفة منقصة ارتكاسية[٢٢] .

ذكر نيتشه في أهم كتبه (أصل الأخلاق وفصلها) الإشكال والصور التي تظهر بها العدمية على هيئة من القيم الزهدية والإحساس بالخطأ، فالمثال الزهدي ظل زمناً طويلاً مستعملاً كمظر خارجي من لدن الفيلسوف وكان هذا المثال شرطا للوجود – ينظر بواسطته إلى الوجود – كان مضطراً لتمثيل هذا المثال الزهدي حتى يتمكن من أن يكون فيلسوفاً، وكان مضطراً للإيمان به، حتى يتمكن من تمثيله. هذا الوضع الخاص بالفيلسوف والذي أدى به إلى الابتعاد عن العالم ... فالفلسفة ظلت زمنا طويلا غير ممكنة بتاتاً على وجه الأرض، من دون هذا القناع وهذا التنكر الزهدي [٢٣] .

فرفاهة الإحساس الذي كان يتمتع به نيتشه، والرقي في تعامل مع الحياة بمقولاتها الحية كان أعمق حدثا في الفلسفة من هيجل نفسه، فالنزول إلى قعر الحياة المنحطة كان من أخطر المسائل التي يتحاشى الفيلسوف مواجهتها.

إن هيجل عندما اكتشف مراحل الشعور الساذج في فهمه للحياة كان اكتشافه قد اقتصر على المراحل المتأخرة ، أي ابتداءً من الفلسفات الحديثة المتأثرة بالأخلاق الكنسية وصولاً إلى فكر كل من فختة وشلنغ ، على اعتبار أن هذه المراحل كانت تنظر إلى الحياة من وجهة نظر ديني سطحي ولم تعِ الحياة كما وعاها العبد وهي الخوف من السيد المطلق أي (الموت)، فكانت الحياة بالنسبة لهم عبارة عن كنيسة وتعاليم موجهة فلم تكن فكرة انطلاق الفلاسفة منذ العصور الوسطى وحتى الفلسفات المثالية نابعة من شريعة القلب . وهذه يمكن عدها الحدود والأعماق التي توصل إليها هيجل في نقده للفلاسفة.

وقد ذهب نيتشه إلى ابعد مما ذهب إليه هيجل ؛ لأنه لاحظ ان جذور هذا الإدراك الساذج العدمي له أصول ترتبط بسقراط الذي قضى – برأي نتشه – على هوية الحياة بانتهاجه سلوكاً أخلاقياً وزهدياً وأيضا هجومه العنيف ضد رواد الفكر التعددي

(السفسطائية) بحيث أحال الحياة إلى قطعه معدنية واحدة وذات شكل واحد.: ((لقد حمل أعظم الحكماء في كل عصر نفس التصور عن الحياة أنها عدمية القيمة ... لما يقولون عنها دائماً وفي كل مكان نفس النبرة – نبرة الشك ، كآبة مبهمة ، ضجر من الحياة مقاومتها . سقراط نفسه لحظة احتضاره قال: (ما الحياة سوى مرض عضال) ... سقراط نفسه كان قد انف من الحياة)) [٢٤].

يصف نيتشه حمل الفلاسفة للقيم الزهدية: ((بأنه قرف ينتاب الذوق الارهف لما يصادف من ترقيق وتزويق سوقي فاقع لدى كل المتفلسفين حول الواقع ، هؤلاء الذين لا جديد ولا أصيل عندهم غير هذا التزويق))[٢٥] .

يقصد نيتشه من العبارات التي ظهرت أعلاه، فلاسفة العدمية لا جديد ولا أصيل في فكرهم، أما نيتشه فإنه يبحث عن رؤية أصيلة للحياة، رؤية مباشرة من غير الاستعانة بما تمليه القيم العدمية والزهدية على الفيلسوف من رؤية عدمية سابقة جاهزة (حضور مستمر)، وهي تبعث البهجة والارتياح للعقل، وتقصرّ عليه عناء البحث الجديد عن الحياة، ذلك ما حاول نيتشه فضحه، عندما أراد ايقاض العقل بوساطة المرض والتشاؤم والنزول إلى قعر الحياة، ويمكن أن أطلق عليها (بدائل عن صحة العقل وراحته وبحثه عن البهجة) بدلا من التشاؤم.

فمن مميزات النقد الجذري اكتشافه اللامحدود للوعي الساذج (الوعي الخامل والمريض الذي أصيب بالعدمية)،. وقد ابتدأت هذه النظرة تتبلور عنده عندما لاحظ نهاية المأساة اليونانية، أي عندما وضع القول الطبيعي في قوالب منهجية، بعد فترة الفلاسفة الأوائل في نظام منطقي زهدي قضى على تعددية الأفكار عند الفلاسفة الأوائل، وقد تناول نيتشه بعد ذلك الأفكار الزهدية الممتدة من المسيحية _ والتي تكون

امتداداً للأفكار الزهدية السقراطية_ وهذه المرحلة هي ما اهتم به هيجل قبله بشكل ضيق جدا.

إن السبب الآخر لنشأة العدمية هو إشعار العامة وبالأخطاء والذنوب الكبيرة اتجاه الرب، فهذا النوع من العدمية برز عندما ظهرت الكنيسة كرمز للتطهير من الأخطاء والتكفير عن الذنوب، عندما تمثلت الكنيسة كسلطة إلهية، حيث اخذ هذا الرمز يشمل كافة نواحي الحياة واخذ يتسلل إلى مركز الثقافة الغربية ويقبل بصورة لا واعية، بحيث انه قضى على العلاقة المباشرة بين الفكر والحياة. واستعاض بدلاً من الهوة الواسعة التي سبّبها نفي علاقة الفكر بالحياة واسطة أخلاقية، أسماها نيتشه (ممارسات الاحتيال على الحياة) . كيف ظهرت فكرة الشعور بالذنب إلى هذا الوجود، كيف نشأ ذلك النوع من العدمية وأصبح احد الحلول المناسبة للحياة وللإنسان؟

إن تحمل المعاناة الكبيرة والإحساس بالألم هي ملكة جوهرية يمتلكها الإنسان، وهي قوة مساوية لقوة الحياة ، وإن الكاهن قد احتال على هذه المَلكة وسعى إلى التضييق عليها بممارسة التنويم الأخلاقي، واستعمال الأوهام بحجة الإرشادية للقضاء عليها. وقد أحال الكاهن هذه الملَكة إلى سلطة وإرادة قوية لإقصاء الطرف الآخر والمهم من للإنسان (الحياة)، والذي بقيم عليها فهم ذاته والإحساس بجمال الحياة دون إقصاء أي طبيعة من طبيعتها الكاملة، وبسبب ذلك الكيد والنفي لحق الحياة داخل الإنسان: ((إن هناك ثغرة هائلة تحيق بالإنسان، فالإنسان اعجز من أن يبرز ذاته، أن يفسرها أو يؤكدها، انه يشقى أمام مشكلة معنى حياته. وهو على كل حال يشقى بصورة متعددة، لكن مشكلته لم تكن في الشقاء بحد ذاته، بل كانت في عجزه عن الإجابة على هذه المسالة: ((لماذا هذا الشقاء؟)) والإنسان الذي هو أشجع الحيوانات وأشدها تمرساً بالشقاء، لا يرفض الشقاء بحد ذاته؛ إنه يريده بل هو يسعى إليه، شرط أن يكشف له عن معنى هذا الشقاء وعن سبب لزومه. فاللعنة التي ناءت بكلكلها على البشرية هي

خلو الألم من المعنى لا الألم بحد ذاته. والحال أن المثال الزهدي يعطي لهذا الألم معنى معينا! وهذا المعنى ظل حتى الآن المعنى الوحيد. وجود المعنى، مهما كان أمره، يظل أفضل من عدم وجود أي معنى على الإطلاق ... بواسطته يجد الشقاء تفسيراً .. فقد صور الشقاء بوصفه عقاباً على ذنب)) [٢٦] .

يحذر نيتشه من أولئك الكهنة الذين يمارسون جميع الوسائل للقضاء على ملكة اكتشاف الحياة (استمرار الألم)، الذي كان وسيلته لمعرفة زوايا مهمة من الحياة. فالكاهن لديه البراعة الكافية لكي ينتزع من النفس البشرية تلك الملكة المعرفية وذلك من خلال مجموعة من الممارسات تظهر بأشكال مختلفة من خنق للمشاعر الحية والبهجة المسكينة من خلال إيقاظ الشعور بالقوة ضمن الجماعة. والتنظيم داخل قطيع آلي موجه، وكذلك تظهر للكهنة وسائل أخرى، في تحويل المعنى إلى معنى آخر يقول نيتشه: ((أما الخطيئة إذ هذا هو الاسم الذي يطلقه الكاهن على (الضمير المتعب) .. فقد ظلت حتى الآن الحدث الرئيس في تاريخ النفس المريضة: إنها تمثل بالنسبة لنا أسوأ ما قام به التفسير الديني من ضروب البراعة. الإنسان الذي يشقى بسبب ذاته نفسها، يشقى لسبب من الأسباب، لسبب فيزيولوجي على الأرجح ، ويكاد يكون أمره في ذلك كحيوان في قفص قديم ممل: يضطرب ويرتبك ، يتشكك في الأسباب والمسببات، يسعى وراء لذات الأمور، إذ أن ضروب القين مدعاة للتأسي والعزاء. يبحث أيضا عن أدوية ومسكنات ... هذا الإنسان ينتهي به المطاف أخيرا إلى الاتفاق مع شخص يعرف الأمور حتى خباياها. هاكم! أنه يحصل على توضيح ... فها هو الكاهن الزاهد يزوده بأول توضيح حول (سبب) (معاناته): عليه أن يفتش عن هذا السبب في نفسه بالذات، في إثم ارتكبه في الزمن الماضي عليه أن يفسر ألمه بالذات بوصفه عقاباً وقصاصاً لقد سمع هذا الكاهن التعيس، وفهم ... ها قد تحول من إنسان مريض إلى إنسان (أثيم))) [٢٧] .

فقد حاول نيتشه أن لا يفرق بين الحيوان والإنسان، فالحيوان على أساس رأيه هذا أكثر فهما للحياة من الإنسان، لأنه لا يأخذ بمثل هذه الإرشادات والضوابط الأخلاقية، ولأنه لم يدخل مزادات الثقافة الاجتماعية، ولأنه لا ينتظم في جماعات يقيم معها حواراً مشتركاً فهو الفرد المتألم ومن ثم فهو والحياة واحد وهو الأكثر فهما من الإنسان الذي تشوه بالأخلاق والقيم الزهدية. إن ما تقوم به في هذا البحث هو شرح وجهة نظر نيتشه في معرفته للحياة والتي ستنتهي في اكتشافنا في آخر هذا الفصل أن نيتشه لم يكن فيلسوفاً، بقدر ما كان وعيا شقيا هـ لم يصل إلى هذا العود الأبدي الذي رسم خارطته وأورثها لإنسانه الأرقى (السوبرمان) . فالشقاء الذي هو معنى من معاني الحياة تحول إلى وعيا بالإثم والخوف من العقاب بفعل سيادة الكاهن الذي افسد – برأي نتشه – صحة النفس، في كل مكان مارس فيه سيطرته، ونتيجة لذلك، فقد افسد الذوق العام أيضا بقول نيتشه: ((آمل أن يوافقني القارئ ببساطة على هذه الاستنتاجات وان لا يجعلني اشعر، في الأقل، بالحاجة للبرهنة عليها)) [٢٨] .

تأتي أهمية نيتشه من حيث أنه ابتدع منهجا جديدا، استطاع من خلاله بناء فلسفة قائمة على الخلط بين الأدب والفلسفة، كمشروع حديث لفهم أولية الحياة خارج حدود المنطق، ولفك سماكة النصوص الفلسفية التي تحفل بالعدمية، وإذا كان نيتشه قد عنى فعلا بوجود الإنسان السوبرمان الذي يمثل فكرة انفعالية ووجودية من خياله الخصب، تلك الفكرة التي لم يقدر لها أن توجد فعلا، وفكرة العود الأبدي التي حاول نيتشه كغيره البحث عن أصل تاريخي لها، لم يجدها حتى وفاته، فما هو المعنى الذي عرفه عن الحياة؟

إن هذا البحث هو محاولة للكشف عن الأسلوب الفني الذي قدر لنيتشه قراءة حياة النصوص الفلسفية، وأقول حياة النصوص، لأنها جسدت حياة الفلاسفة وتجاربهم الذاتية فيها، فهل أن الفلسفة في هذا الوضع قد كرست جهدها الكبير لتخليص الإنسان

من شقائه؟ وهاكم بعض الابتكارات المنهجية والذوقية من الأدب الرمزي التي وظفها نيتشه كأداة لنقد الفكر الغربي.

العقل الغربي وتحولاته القيمية

كانت شخصية زرادشت من الشخصيات التي تضمنت كتاب (هكذا تكلم زرادشت)، وهي شخصية مضادة لشخصية زرادشت الحامل الأول للقيم الأخلاقية التي تضمنت أصلين جاءت منهما القيم الاخلاقية الاخرى هما (الخير والشر)، وكان أن استخدم نيتشه أسلوبه الرمزي في اكتشاف الخيوط الأولى التي تفرعت منها تلك الشبكة الأخلاقية من القيم، وحاول نيتشه إضافة إلى ذلك، توضيح مشكلة كبيرة كان قد علق بها الفكر الغربي آنذاك، وهي مشكلة علاقة الأخلاق بالمعرفة، .فكان مشروع نيتشه منصباً على فصل الأخلاق عن المعرفة، ومحاولة إيجاد المنابت الأولى لنشأة هذه الأخلاق، بعبارة أخرى، قلع جذور الميتافيزيقا من الأعماق، والعودة إلى الحياة، والبدء بتاريخ جديد للفلسفة. فنيتشه بحسب هذا الطرح لم يبدأ التفلسف بل تركه إلى أن ينهي مشروعه التهديمي، والسؤال هو: متى يبدأ التفلسف عند نتشه؟

إن مشروع نيتشه يسير نحو محاولته لتقسيم العقل الغربي إلى ثلاث أقسام فيقول: ((سأشرح لكم تحولات العقل في مراحله الثلاث، فأنبئكم كيف استحال العقل جملاً، وكيف استحال الجمل أسدا، وكيف استحال الأسد أخيرا فصار ولداً))[٢٩].

تأتي إرادة قوة عند نيتشه، من تلك القدرة الفنية على نزع الصفات الطبيعية التي يتحلى بها أي كائن من الكائنات الحية، وتوظيفها في مشروعه لاكتشاف خفايا القيم الأخلاقية، ملاجئ الميتافيزيقا الغربية . أما تحول الفكر الغربي فيأتي على الشكل الآتي:

أولا. تبدأ الميتافيزيقا الغربية بالتحول الأول: عندما تكون (جمالا) تحول العقل إلى جمل: تلك هي مرحلة بداية الميتافيزيقا والأخلاق، ولأن الفكر الغربي كان حاملاً لهذه الأخلاق وعلى فترات طويلة من تاريخ الفكر، فهو يأخذ صفة الجمل الذي تكون وظيفته في الحياة هي حمل الإثقال وحمل البشر إلى مسافات طويلة، وأنه قادر وصابرا على حمل هذه الأحمال لأيام ولفترات طويلة. وقد كانت المسافات الطويلة هي الفترات التاريخية التي حمل فيها الفكر الغربي الأخلاق والمثل الزهدية والميتافيزيقا القديمة طيلة هذه الفترة من الزمن.

وضع نيتشه لهذه الفترة والنسق الذي يحكمها ألقاب ومفاهيم رمزية وتسميات غريبة، (الشيطان)، (الروح الثقيل)، أو (الروح لكثيف)، كان نيتشه يعد نفسه هو الآخر من بين الذين شاركوا في حمل هذا الشيطان، ذلك ما يذكره في كتابه زرادشت إذ يقول: ((واعتليت فإذا بروح الكثافة، وهو عدوي الألدّ يشدّ بي إلى الأعماق، واعتليت أيضا، فإذا بهذا الروح المطبق علي كالقزم من الناس ... يسكب في أذني ودماغي كلمات ثقيلة كالرصاص)) (٣٠) .

تلقى زرادشت ذلك الروح الكثيف بعد خروجه من العزلة_ من الوطن _ وهذه الفترة تمثل خروج نيتشه إلى معترك الثقافة وقبوله للبعض منها، مثل قبوله للدراسات الفيلولوجية وتأثره بفاغنر وشوبنهاور. إن هذا النص الذي يصف به نيتشه تأثير الروح الثقيل على زرادشت هو وصفه لذاته التي أخذت تراوح بين الغفلة والاستسلام، وبين الانتباه والرفض لصوت هذا الروح الثقيل (القيم الأخلاقية)، ويمكن أن يكون موقف نيتشه من هذه القيم الأخلاقية قد مرَّ بلحظتين مهمتين:

١. تمثل اللحظة الأولى لحظة الإغفال والاستسلام، وذلك عندما ينفصل نيتشه عن مشروعه ويغيب عنه، لاستحضار أدواته التي يواجه بها موجات الأخلاق المنتشرة في كل مكان، وبأشكال مختلفة ومتجددة، وهذا الإغفال مرتبط أيضا بالفترات الأولى من

استخدم نيتشه لمنهجه الجديد، الذي لم يصبح بعد ملكة قادرة على الإحاطة بالقيم الأخلاقية بصورة كلية. وهذا يظهر في مقاطع من كتابه هكذا تكلم زرادشت فيقول على لسان زرادشت : فسمعته يقول أي – الروح الكثيف – متمهلاً هازئاً ((أي زرا أيها الحجر الحكيم المنقذف إلى العلا ليزعزع الكواكب في مدارها، ما أنت والمقذوف معا، فلابد لك من السقوط ككل حجر يرشق إلى ما فوق. لقد حكمت بالرجم، فكان حكمك به على نفسك، وهذا الحجر الذي فوّقته سيرجع ساقطا عليك)) (٣١) .

يثبت لنا هذا النص قلق نيتشه وضعفه إزاء مواجهته للقيم التي تظهر أمامه بموجات عالية ومختلفة من التمظهر الماكر، فهي ظهرت على لسان ذلك الروح الثقيل بصفة (الرجم) أي قذف الحجر على الذي حكم عليه بسبب ارتكابه معصية أدت به إلى الرجم.

يذكر نيتشه في نص آخر، في الجزء الثالث من كتاب زرادشت تلك الغفلة التامة عن رؤية الأخلاق الزهدية في نشيد الثمل حيث يقول زرادشت:

((أيها الإنسان ، كن على حذر))

((ماذا يقول نصف الليل؟))

((لقد استسلمت طويلاً للوسن)) (٣٢) .

فربما يرمز نصف الليل إلى النوم العميق، والاستسلام الطويل للوسن، أي عدم القدرة على رفع الجفنين، وهي لحظات من الوهن والضعف، وهي من المؤكد عدم قدرة على رؤية تسرب تلك القيم الزهدية إلى الفك . كان نيتشه في لحظة تأثره ذلك، لحظة تبني الأفكار الغربية منفصلا عن رؤية الحياة كانكشاف له، وحتى في مرحلة تحطيم تلك القيم، لم يكن انكشاف الحياة له إلا اعتقاداً بنى عليه فلسفته، بمعنى أدق اعتقاد بالعود الأبدي. وقد ترتب على ذلك الانفصال وذلك الانسلاخ _ فترة تأثر نيتشه بثقافة عصره_ مجموعة من الآلام يذكرها نيتشه بقوله: ((وسكت القزم طويلا حتى ضاقت

من سكوته أنفاسي، فالرفيق الصامت يشعرك بوحشة الانفراد، أكثر مما تشعر بها وأنت وحدك لا رفيق لك)) (٣٣) .

إن من الغريب أن يعطي نيتشه للألم معان أخرى، بل ويضخ من الدوال الكثيرة للدلالة على معنى واحد، فالألم يعبر عنه بالوحشة والإنفراد والخوف، وتترتب عليه حالة من الاكتئاب الثقيل مع ضيق في الأنفاس. ويذكر نيتشه آلاماً أخرى تصل إلى حدودها القصوى فيقول : ((وارتقيت أيضا وأنا تائه في تفكيري وأحلامي، يتزايد الضيق في صدري، كأنني عليل نبهته أضغاث أحلامه فاستفاق ليشعر بأوجاعه)) (٣٤) .

تلك هي لحظة اليقظة من النوم الطويل، لحظة التهيؤ لمواجهة الروح الثقيل، وهي المرحلة التي سوف تنقله إلى اللحظة الأخرى من لحظات موقفه من القيم الزهدية وصراعه المستمر ضدها.

٢. لحظة الموقف من القيم الزهدية وهي لحظة اليقظة والانتباه ورفض صوت الروح الثقيل (رفض الأخلاق الزهدية)، وهي لحظة نداء الحياة، صوت يرسم له خيوط نسيج جديد للحياة الذي لم يظهر له بصورة انكشاف بل بصورة بناء يحاول القيام به هو ذاته.

تمثل اللحظة الأولى لحظة الغفلة عن رؤية الروح الثقيل، فترات من تسرب القيم الزهدية العدمية إلى نيتشه، وانقطاعه عن سماع صوت الحياة، ويمكن أن نطلق عليها (لحظة الخوف من الكتابة)، وهي خوف من أن يتسرب ذلك الروح الخفي حتى إلى منهجه، لذلك يسارع نيتشه بصورة مفاجئة إلى الانتقال إلى لحظة أخرى، وكأنه قد استيقظ من سحر كان يخيم عليه، فنراه يرفض الاستسلام لصوت الأخلاق، ويدافع عن منهجه بنبرة عنيفة جدا، ضد أي نوع من القيم الزهدية، يقول نيتشه: ((غير أنني اعهد بنفسي قوة اسميها شجاعة، وهي القوة التي أرغمت بها كل وهن في نفسي بهذه الشجاعة تذرعت فصحت بالقزم قائلا: إن واحدا منا يجب عليه أن يتوارى))(٣٥) .

تعد تلك الجرأة وتلك الانتفاضة من لحظات المرحلة الثانية من مراحل العقل، وهي مرحلة استحالة العقل إلى أسد، إرادة القوة والتي تصاحبها دائما في كتاب زرادشت كلمات الرفض والصحوة وأحيانا الضرب.

ثانيا. تحول العقل إلى أسد: وهي الصفة الأخرى التي يتحول بها العقل الغربي إلى أسد، التي تمثل إرادة القوة لدى نيتشه، هي مرحلة الاستعداد لمهاجمة المثل الزهدية العليا، ويقول نيتشه عنها، بأنها مرحلة قد تأثرت بها أيضاً بسموم الثقافات الأخرى، ولا تعد مرحلة انقطاع جذري عن رواسب الأخلاق الزهدية ويصورها نيتشه في كتابه زرادشت الجزء الثاني قسم (العناكب) فيقول: ((ويلاه، لقد أصبت أنا أيضا بلسعة العنكبة عدوتي القديمة فقد توصلت بثقتها بنفسها وبجمالها الإلهي إلى نيل بناني بلسعتها .. اجل لقد انتقمت ، ويلاه ! إنها ستوجه نفسي إلى عاطفة الانتقام . تقدموا أيها الصحاب وقيدوني بهذا العمود كيلا أتحول عن مبدئي فخير لي أن أصبح تمثالاً جامداً من أن أهب كعاصفة منتقمة)) [٣٦] .

يؤكد لنا هذا النص النيتشوي، أن نيتشه لم يتخلص في مرحلة تحول الجمل إلى أسد من القيم الزهدية بصورة كاملة، ودعوته لأصحابه أن يقيدوه في عمود ، كيلا يتحول عن مبدئه، دليلا للصراع النفسي بين التخلي عن القيم القديمة وانتقاله إلى مرحلة جديدة . وتحدد هذه المرحلة بمرحلة الحذر والاحتراس، في ثقافة نيتشه، وهي مرحلة بداية هجومه على الألمان وثقافتهم القائمة على مبدأ المساواة والتشوبة بالمسيحية .

كانت الألفاظ العنيفة والقاسية، (التمزيق) و (الضرب) تتناسب مع قسوة وضراوة الأسد، وهي تختلف عن مرحلة (الجمل)، من حيث أن الجمل صبور وهادئ، رغم ما حمل عليه . أما الأسد فانه غاضب وليس له القدرة على الصبر رغم أنه لا

يقبل بأي حمل على ظهره، وهذه المرحلة تمثل رمي الأحمال وتمزيق كل ما يقف بطريقه من الأشياء.

استخدم نيتشه ألفاظا تتناسب مع قوة الأسد، فيقول في الجزء الثاني قسم (العناكب) من كتاب زرادشت: ((سأكشف عن مكانكم وأنا أواجهكم بقهقهة تسقط عليكم من الذرى التي اتسنمها وها أندا أمزق نسيجكم حتى إذا تملككم الغضب خرجتم من مغاور أكاذيبكم وتدفقت نقمتكم بكلمة العدل التي تتفوهون بها)) (٣٧) .

نجد في قسم الساحر من كتاب زرادشت الإيقاع نفسه القائم على استخدام القسوة فيقول نيتشه: ((وبلغت الثورة في زار حدها فرفع عصاه واخذ يقرع بها الرجل الذاهب بنواحه وشكواه، قائلا له بضحكة ملؤها الغضب – توقف أيها المشعوذ، أيها المزيف، أيها الكذاب، لقد عرف من أنت)) (٣٨) .

يرمز الساحر في كتاب (زرادشت) إلى عالم الظاهر والشيء في ذاته، الذي برز بصورة أكثر عند الفيلسوف الألماني (إمانويل كانْط)، والذي ظهر بصفة الشيخ، فيقول نيتشه على لسان (زرادشت): ((أما أنت فقد قضي عليك بأن تخدع الناس، فما يخفى أمرك عليّ فانا أعرفك واعرف أن لكل كلمة من كلماتك معنيين بل ثلاثة وأربعة معان ...)) (٣٩) . ويقول أيضا في وصف الشيء في ذاته على لسان الساحر: ((أنا طريدك أيها الفكر الذي لا اسم له، أيها المحجب المخوف الملفع بالغمام))(٤٠) .

إن أنين وشكوى الشيخ الساحر الحامل لقيم الشيء في ذاته، والذي يقول عنه زرادشت أنا طريدك أيها الفكر الذي لا اسم له، أيها المحجب المخوف الملفع بالغمام،هو الشيء في ذاته الذي قال به (كانْط) ولم يحدد ماهيته.

إن هذا النص جاء ليعبر عن أصل تشكيل الإيديولوجيات، فالإيديولوجيات هي إرادات مضادة للحياة، وهي تحريف للمعرفة من رغبة في تمثل الحياة إلى رغبة في

استهلاك الحياة عن طريق تضمينها داخل نظام هرمي استتباعي لا يملك الآخرين حق تغييره أو الاختلاف عنه (٤١).

فتحطيم جميع الأوهام التي تراكمت على الوجه الحقيقي للحياة، على القول الأول لحكمة الحكيم، هي المغامرة التي حاول نيتشه خوض غمارها، وقد حدد هذه التراكمات في القيم الأخلاقية التي اندمجت مع التفكير والتأمل في الحياة وقامت بتوجيه نواحي الحياة المتعددة في زمن الفلاسفة الأوائل إلى اتجاه، واحد مما أدى إلى فصل العلاقة بين الفكر والحياة وأنعدمت بالذات القدرة على التأمل الفلسفي، وهذا ما لاحظه (مارتن هيدغر) عندما أدرك إن الميتافيزيقا كانت تاريخاً خطيراً جداً جر الإنسانية الغربية إلى نيسان الكينونة أي نسيان الأصل والمرجع الأول للحياة، ذلك النسيان التام للكينونة الذي دشنه كذلك العصر التقني (٤٢) .

إن القدرة على المواجهة ليست بالشئ الهين، فقد غرز نيتشه مخالبه الفكرية ومفاهيمه الهدامة داخل أحشاء الميتافيزيقا الغربية، بكتشف المعرفة وتلك الإرادات السلبية، فقد رفع في كتابه زرادشت، نقاب الزيف عن وجه الحكماء ، والمفكرين ، والعلماء ، والفلاسفة وتحت تسمية مشاهير الحكماء، وفضح أولئك الذين يطمحون إلى الارتقاء إلى تجربة صوفية سريالية (الشعراء)، وأيضا أولئك الغشاشون الذين يقفون في الشرك الذي ينصبونه (العلماء) فهم ليسوا برأيه أفضل بالواقع من المثرثرين بأفكار جاهزة (٤٣) .

ثالثا. تحول العقل إلى طفل، مرحلة البحث عن أرض جديدة، وتاريخ بريء:

ترمز تلك المرحلة إلى ولادة جديدة، وكذلك إلى الانفصال عن كل ماضٍ، وعدم الانتماء إلى كل مذهب أو فلسفة، وهو قلب النظرة العدمية للحياة إلى نظرة مبهجة ملؤها الضحك والرقص اللذان يرمزان إلى التعدد والصيرورة، تلك هي صفات الطفل الذي جاء من دون فهم لما حوله. وقد أطلق نيتشه على مرحلة الطفل هذا بالعود

الأبدي، ذلك ما أدركه (فوكو) عندما يذكر بأنه ليس ثمة من عود إلا بتراجع لا نهائي لفكرة الأصل – لأنه يصطلح على فكرة الأصل أن تعني للمفكر المباشر العود الأبدي، أن يدركها على أنها هي تلك المرجعية التي لم يفهمها بعد، وعليه أن يفهمها والفهم هذا هو فعل مستقبلي دائم [٤٤] .

إن قول فوكو في أن يدركها – العود الأبدي – على أنها تلك المرجعية التي لم يفهمها بعد... هي أن يأتي المفكر إلى الحياة وليس لديه فكرة مسبقة عنها، بمعنى آخر أن تكون محصلة ذاكرة المفكر صفراً، حتى يبقى شيئا من الثقافات السابقة عالقة في الفهم الجديد للحياة . كذلك يشبه نيتشه هذا المفكر بالطفل الذي لا يمتلك أي فكرة عن الحياة، وهي برأي نيتشه ملاذ جديد للفلسفة وتاريخ معلوم لحياة مجهولة.

إن ذلك التحول الثالث (الطفل) من تحولات العقل الغربي، وهو أن يأتي الإنسان متحرراً من قيود رسمتها له أنظمة معرفية قديمة. إن هذه التسمية لا تتناسب مع ما جاء في مقاطع كتابه (هكذا تكلم زرادشت)، لان نيتشه استخدم ألفاظا غريزية لا يمكن للطفل أن يتفوه بها، وإن كان استخدامه للطفل بقصد الرمز. فيقول في الجزء الثالث من هذا الكتاب قسم نشيد آخر للرقص: ((إنني أخشاك قريبة واحبك بعيدة، أيتها الحياة، فيجذبني إعراضك عني ويوقفني إقبالك نحوي،فأنا المعذب بك وأي عذاب لا أتحمله من أجلك)) [٤٥] . في مقطع آخر يقول: ((أي إنسان لا يكرهك، أيتها الآسرة الغامرة الساحرة التي لا يفوتها مقصد تتجه إليه...)) [٤٦] .

إن هذا الوصف وهذا التغزل بالحياة، كأن الحياة أنثى قد عرضت على نيتشه بكامل تفاصيلها، بل أن نيتشه يوجه ذائقته ومشاعره الجياشة نحو الحياة، وهو على صورة الطفل الذي يأتي إلى الحياة وليس لديه معرفة معرفته سوى حاسة التذوق، ولكن نيتشه يتجاوز تذوق الذي يتمتع به الطفل فقط إلى أعلى من ذلك، وكأن لديه معرفة سابقة وموروثة، خصوصا وأن نصوصه تلك، تصف الحياة عن معرفة ودراية بها،

سيما أن فن تذوق الحياة كان نتاج عمل وفهم ومعرفة، وأن تذوق الطفل هو طبيعي غريزي لم تسبقه أي معرفة. ولا أدل عن ذلك قول نيتشه في إحدى نصوصه في وصف الحياة : (((إلى أين تقودينني الآن أيتها الطفلة المهذبة الشاردة ؟ أراك تفرين من أمامي حلوة طائشة أيتها الفتية . وها انذا اتبعك راقصا حتى إلى المآزق التي لا اعرف لها منفذاً)) [٤٧] .

إن الحياة قد تمثلت أمام نيتشه خصوصا فإن نيتشه لا يمكن أن يضع صفات لشيء دون أن يراه، وهو وكما نعرف ينفر عن كل توجه ميتافيزيقي. إذن فالحياة قد تمثلت إليه على صورة شيء، ولكن ما معنى استخدام نيتشه لرمز الطفل وما هو علاقته بالحياة؟ لعل نيتشه أراد من فكرة استخدام الطفل أن يكون ابنا مخلصا للحياة؟ وأنه لم يخنها، ولكن نيتشه خان الحياة في بداية خروجه من العزلة ذلك ما يذكره في المقطع الأول من الجزء الأول حينما يقول: ((لما بلغ زارا الثلاثين من عمره ، هجر وطنه وبحيرته)) [٤٨] . والهجرة معناها الخيانة فهو لذلك يندم على هذه الخروج من هذه العزلة وهجرة وطنه وبحيرته، ذلك ما يذكره في الجزء الثالث عندما يقول: ((أنت وطني أيتها العزلة لقد طال اغترابي في بلاد المتوحشين . فها انذا أعود إليك أيها الوطن وعيناي تذرفان الدموع)) [٤٩] .

إن القول بذلك الاحتمال يبطل بمجرد خروج نيتشه من عزلته من طفولته (فطرته) فنيتشه لم يستخدم الطفل حتى ينزع منه صفة الإخلاص للحياة، بدليل خروجه عنها. فلعله استخدم هذا الطفل لكي يسلب منه غريزته الأولى، أي غريزته الطبيعية التي تساوي طبيعة الحياة .

فهناك ألفاظ عديدة تحمل غريزة الحب للحياة ، وقد ذكرنا سابقا،إنالحياة قد تمثلت أمام نيتشه وقد وصفها بهذه الألفاظ الغريزية، وقد اخذ من الطفل الغريزة التي لم تتشوه بغرائز الآخرين المصطنعة، وقد انطلق للحياة يصفها بغريزة من طبيعتها (غريزة

طفل) . ولكن الألفاظ اكبر من أن تصدر من هذه الغريزة البسيطة، خصوصا وأن وصف الحياة بهذه الألفاظ ينم عن معرفة مسبقة بها فيصف (الحياة) على أنها: ((الآسرة الغامرة الساحرة، أراك تفرين من أمامي حلوة طائشة أيتها الفتية، إنني سأحملك إلى هناك مدي معصميك إليّ)) [٥٠]. فهذه الألفاظ لا تصدر إلا من عاشق لمعشوق يراه ويصفه بهذا الوصف، ولا يمكن أن يكون الطفل هو العاشق بطبيعة الحال.

وهنا ومن خلال هذا التحليل للنصوص النتشوية يمكننا أن نتساءل هل الحياة عند نتشه مرأة ؟ وانه يبحث عن معرفة هذه المرأة ؟

يمكننا تحديد نصا في قسم (نشيد اخر للرقص) يقترب من هذا التشبيه، تشبيه الحياة على أنها أمرآة فيقول: ((لقد تعبت من رعايتك والسير وراءك ، أيتها الساحرة، لقد أسمعتك أغاني حتى الآن، فلسوف تسمعينني صراخك، هيا: ارقصي على نقرات سوطي ألهبك به ، فإنني ما نسيت سوطي)) [٥١] .

أما الجزء الأول من كتاب زرادشت في قسم (الشيخة والفتاة)، عندما أرادت الشيخة أن تعلن لزرادشت عن حقيقة صغيرة قال زرادشت: ((فقلت هاتيها هذه الحقيقة الصغيرة أيتها العجوز وهذا ما قالت العجوز إذا ما ذهبت إلى النساء فلا تنسى السوط)) [٥٢] .

ظهرت كلمة السوط في المقطع الأول من النص، من دون أن تظهر أو تحدد ملامح الحياة، وفي المقطع الثاني ظهرت كلمة السوط ومعها كلمة النسا، ومن هذين المقطعين نتوصل إلى حقيقة وهي أن الحياة عند نيتشه هي (المرأة) بكل صفاتها ومفاصل وجودها .

إن في قسم (الشيخة) من كتاب زرادشت يمكننا التعرف على الحياة عند نيتشه، على أنها وعي ذلك الانفصال بين المتناهي واللامتناهي، ولاسيما أن نيتشه قد انزل الحياة إلى منزلة المرأة، النصف الآخر للرجل الذي لا يكتمل معناه من دونها، كما

لم يكتمل معنى نيتشه نفسه لأنه لم ينسَ سوطه، فهو وإن حارب الأخلاق العدمية، يحاول خلق قيم عدمية أخرى تحت سلطة سوطه . فما هي الحياة عند نيتشه؟

إن قراءة عميقة للنصوص النيتشوية يمكن من خلالها الكشف عن معاني الحياة عنده، الحياة هي المخاطرة واللعب، إذ يقول في مقطع قسم (الشيخة والفتاة): ((.. ولكن ما تكون المرأة للرجل يا ترى؟ إن الرجل الحقيقي يطلب أمرين : المخاطرة واللعب، وذلك ما يدعوه إلى طلب المرأة ، فهي اخطر الألعاب)) (٥٣). وأيضا، فهو يعد الحياة لعبة صغيرة طاهرة فيقول: ((لتكن المرأة لعبة صغيرة طاهرة كالماس تشع فيها فضائل العالم المنتظر)) (٥٤) .

فما الفضائل التي يحاول نيتشه أن يقيمها للعالم؟ وأي فلسفة يقدمها يمكن جعلها طريقة لمعرفة الكون والحياة؟ إن الفضائل التي يقيمها نيتشه للعالم المنتظر على أساس ما يجده من شعور تجاه المرأة. فهي القياس الأخير لفضائله الجديدة وهذه الفضائل ظهرت بأشكال مختلفة. فيقول نيتشه واصفا فضائل المرأة: ((ليحذر الرجل المرأة عندما يستولي الحب عليها، فهي تضحي بكل شيء في سبيل حبها، إذ تضمحل في نظرها قيم الأشياء كلها تجاه قيمته. ليحذر الرجل المرأة عندما تساورها البغضاء، لأنه إذا كان قلب الرجل مكمناً للقسوة، فقلب المرأة مكمن للشر)) (٥٥) .

ولأجل تفادي شر المرأة، يأخذ نيتشه بنصيحة الشيخة عندما تقول له – وكمعرفة نلخص فيها علاقة نتشه بالحياة –:

((إذا ما ذهبت إلى النساء فلا تنس السوط))

((هكذا تكلم زارا ..)) (٥٦) .

فهل يسمح لنا، أو بالإمكان تقبل بناء تاريخ للحياة عن طريق المرأة، تاريخ الرغبة التي يمكن عدها مرحلة من مراحل الوعي، وهي مرحلة الرغبة، وهل يتأسس تاريخ للحياة قائم على معرفة في أصلها العميق رغبة جامحة؟ .

الخاتمة

لا يخلو عالم الأفكار من مخاطر كبيرة جدا، وتكمن تلك المخاطر في النظر إلى العالم وتفسيره تفسيرا ذاتيا، والأخطر من ذلك هو تكوين الأيديولوجيات التي تستند إلى تلك الأفكار الذاتية. ومن مخاطر تلك الأيديولوجيات أنها تقوم بإقصاء جميع الآراء التي تخالف توجهاتها وطموحاتها، وبالتالي تحولها إلى سلطة معرفية ورقابية للسيطرة على الأوضاع وتوجيه العقول نحوها، وبذلك تكون تلك الأيديولوجيات النموذج السائد الذي ينظر إلى العالم ويحلل الكون والطبيعة على أساسه، وهذا الأمر يذكرنا بالمجتمع البورجوازي، الذي ساد العالم الأوروبي، وشكل بناه الفوقية والتحتية، من اقتصاد وسياسة وقانون وأدب وفن، فأصبحت جميع مجالات الحياة تدين بذلك النموذج البورجوازي وتنتج الأفكار على أساسه.

إن مشروع نيتشه كان مشروعا مضادا للمشاريع الفلسفية التي تحولت فيما بعد إلى أيديولوجيات وثوابت مفهومية عمت أوروبا بأكملها، بحيث أنها ساهمت في حجب الفكر على مباشرة الحياة، فأصبحت فلسفات الحضور والتقليد هما المنبعان الوحيدان اللذان يحددان موقف الفكر من الواقع، ولم ينفع النقد الذي قدمه الفلاسفة إزاء الأفكار الميتافيزيقية، بل أن النقد أصبح أيديولوجيا تمارس سلطة النقد.

وقد عزم نيتشه على تفكيك وتدمير مفاهيم الميتافيزيقا، من خلال منهجه القائم على ضرب المفاهيم الأساسية التي تبنتها الميتافيزيقا الغربية، وهي مفاهيم عقلية ثابتة، ساهمت في تجميد حركة الحياة، وقام نيتشه بإيقاظ الغرائز الإنسانية من سباتها العميقن لتأخذ دورها والاتحاد بالحياة، لكونها أقرب وسيلة لمعرفة الحياة، ولكون الغرائز متولدة بصورة طبيعية فهي الأقرب فهما للحياة.

وقد وصف الغرائز الجسمانية بأنها العقل الكبير، أما العقل الإنساني فقد وصفه بالعقل الصغير، فإذا تمرض العقل الكبير، واقترب لطبه للحياة، أستيقظ العقل الصغير

لأدراك ذلك الاتصال بالحياة، وفهم علاقته بالكون والطبيعة، وباشر في التعرف المباشر عليها.

هوامش البحث

(١)..نيتشه ، فريدريش، هذا هو الإنسان، ترجمه عن الألمانية: علي مصباح، منشورات الجمل، سوريا، ط١، ٢٠٠٣، ص١٥.

(٢). نيتشه، فريدريش، هذا هو الإنسان، ص١٤٣-١٤٤.

(٣). نيتشه، المصدر نفسه، ص١٤٤ .

(٤). نيتشه ، ما وراء الخير والشر، ترجمة جيزيلا فالور حجاز، دار غروب في بيروت – لبنان، ط١، ١٩٩٥، ص٩١ .

(٥). المصدر السابق، ص١٦.

(٦). نيتشه ، هذا هو الإنسان، ص١٠٠.

(٧). نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة فليكس فارس، دار القلم، مكتبة النهضة، بغداد ، ط١، ١٩٨٦، ص٣٠

(٨) المصدر نفسه، ص٢١١.

(٩). نيتشه ، هكذا تكلم زرادشت، ص٢١١ .

(١٠). هذا هو الإنسان، ص١٦.

(١١). المصدر نفسه، ص١٧.

(١٢). ينظر، هنري ليشتانبرجر، نيتشه، ص٥٤.

(١٣) ينظر، المصدر نفسه، ص٥٥.

(١٤). المصدر نفسه، ص٥٥-٥٦ .

(١٥). ينظر، هنري ليشتانبرجر، نيتشه ، ص٥٣.

(١٦). نيتشه، هذا هو الإنسان، ص١٧.

(١٧). المصدر نفسه، ص١٧-١٨.

(١٨). المصدر نفسه، ص١٦.

(١٩). ينظر : هذا هو الإنسان ، ص١٦ .

(٢٠). يانكو لافرين ، نيتشه ، ترجمة جورج جحا ، سلسلة اعلام الفكر العالمي المعاصر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت – لبنان ، بلا ط ، ١٩٧٣ ، ص٦١ .

(٢١)..ينظر دولوز ، جيل ، نتشه والفلسفة ، ترجمة : أسامة الحاج ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٩٩٣ ، ص٤٧ .

(٢٢). ينظر : المصدر نفسه ، ص٩٠ .

(٢٣). ينظر : نيتشه ، أصل الأخلاق وفصلها ، تعريب حسن قبيسي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٩٨١ ، ص١١٣ .

(٢٤). نيتشه، أفول الأصنام، ترجمة حسان بروقية ومحمد الناجي، إفريقيا الشرق، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٩، ص١٧.

(٢٥). نيتشه، ما وراء الخير والشر، ص٢٩.

(٢٦). نيتشه، أصل الأخلاق وفصلها، ص١٥٦.

(٢٧). المصدر نفسه، ص١٣٦.

(٢٨). نيتشه ،أصل الأخلاق وفصلها، ص١٣٩.

(٢٩). نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، ص٢٧

(٣٠). هكذا تكلم زرادشت، ص١٨٢.

(٣١). المصدر نفسه، ص١٨٢.

(٣٢). هكذا تكلم زرادشت، ص٣٤٨.

(٣٣). المصدر نفسه، ص١٨٢.

(٣٤). المصدر نفسه، ص١٨٢.

(٣٥). هكذا تكلم زرادشت، ص١٨٢.

(٣٦). هكذا تكلم زرادشت، ص١٢٩.

(٣٧). المصدر نفسه ص١٢٦.

(٣٨). المصدر نفسه، ص٢٨٣.

(٣٩).هكذا تكلم زرادشت، ص٢٨٤ .

(٤٠). المصدر نفسه، ص٢٨١ .

(٤١). ينظر، صفدي مطاع، التاريخ المختلف، مجلة الفكر العربي المعاصر ، مركز الإنماء القومي، بيروت – لبنان، العدد ٤٣ ١٩٨٧، ص٤.

(٤٢). ينظر: جورج غادامير، هيدغر وتاريخ الفلسفة، ترجمة مطاع صفدي، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت – لبنان، العدد ٥٨-٥٩، ١٩٨٨، ص٢١ .

(٤٣). ينظر: بيار هيبر – سوفرين، زرادشت نيتشه، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت – لبنان ، ط١، ١٩٩٤، ص١٣٤.

(٤٤). ينظر: صفدي، مطاع ، (القوة القوية) المعرفي / السلطوي، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت – لبنان، العدد ٤١، ١٩٨٦، ص١٠.

(٤٥). هكذا تكلم زرادشت، ص٢٥٦ .

(٤٦). المصدر نفسه، ص٢٥٦ .

(٤٧). المصدر نفسه، ص٢٥٦ .

(٤٨). هكذا تكلم زرادشت، ص٣٠.

(٤٩). المصدر نفسه، ص٢١١.

(٥٠). ينظر، هكذا تكلم زرادشت، ص٢٥٧.

(٥١). المصدر نفسه، ص٢٥٧.

(٥٢). المصدر نفسه، ص٩٣.

(٥٣). هكذا تكلم زرادشت، ص٩٢.

(٥٤). المصدر نفسه ، ص٩٢.

(٥٥). المصدر نفسه، ص٩٢.

(٥٦). المصدر نفسه، ص٩٢ .

قائمة المصادر

١. بيار هيبر – سوفرين، زرادشت نيتشه، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت – لبنان ، ط١، ١٩٩٤.

٢. جورج غادامير، هيدغر وتاريخ الفلسفة، ترجمة مطاع صفدي، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت – لبنان، العدد ٥٨-٥٩، ١٩٨٨..

٣. ينظر دولوز ، جيل ، نتشه والفلسفة ، ترجمة : أسامة الحاج ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٩٩٣.

٤. صفدي مطاع، التاريخ المختلف، مجلة الفكر العربي المعاصر ، مركز الإنماء القومي، بيروت – لبنان، العدد ٤٣ ١٩٨٧.

٥. صفدي، مطاع، (القوة القوية) المعرفي / السلطوي، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت – لبنان، العدد ٤١، ١٩٨٦.

٦. نيتشه ، أصل الأخلاق وفصلها ، تعريب حسن قبيسي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت – لبنان ، ط١، ١٩٨١.

٧. نيتشه، أفول الأصنام، ترجمة حسان بروقية ومحمد الناجي، إفريقيا الشرق، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٩.

٨. نيتشه ، ما وراء الخير والشر، ترجمة جيزيلا فالور حجاز، دار غروب في بيروت – لبنان، ط١، ١٩٩٥.

٩. نيتشه ، فريدريش، هذا هو الإنسان، ترجمه عن الألمانية: علي مصباح، منشورات الجمل، سوريا، ط١، ٢٠٠٣.

١٠. نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة فليكس فارس، دار القلم، مكتبة النهضة، بغداد ، ط١، ١٩٨٦.

١١. هنري، ليشتانبرجر، نيتشه، ترجمة: خليل هنداوي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت– لبنان، ط١، ١٩٥٤.

١٢. يانكو لافرين ، نيتشه ، ترجمة جورج جحا ، سلسلة اعلام الفكر العالمي المعاصر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت – لبنان ، بلا ط ، ١٩٧٣.

References

.1 Pierre Heber-Soufrin, Zarathustra Nietzsche, translated by Osama Hajj, University Foundation for Studies and Publishing, Beirut - Lebanon, 1, 1994.

. 2. George Gadamer, Heidegger and the History of Philosophy, translated by Mutaa Safadi, Journal of Contemporary Arab Thought, National Development Center, Beirut - Lebanon, No. 58-59, 1988..

. 3. See Deleuze, Gil, Natsheh and Philosophy, translated by: Osama Al-Hajj, University Foundation for Studies and Publishing, Beirut, Lebanon, 1st edition, 1993.

. 4. Safadi Mut'a, The Different History, Journal of Contemporary Arab Thought, National Development Center, Beirut - Lebanon, No. 43 1987.

. 5. Safadi, Muta'a, (Strong Power) Knowledge / Authoritarian, Journal of Contemporary Arab Thought, National Development Center, Beirut - Lebanon, No. 41, 1986.

. 6. Nietzsche, The Origin and Separation of Ethics, Arabization of Hassan Kobeissi, University Foundation for Studies and Publishing, Beirut - Lebanon, 1, 1981.

7. Nietzsche, The Fall of the Idols, translated by Hassan Broukia and Muhammad Al-Naji, Africa of the East, Beirut - Lebanon, 1, 199.

8. Nietzsche, Beyond Good and Evil, translated by Gisela Valor Hijaz, Dar Ghoroob in Beirut - Lebanon, 1, 1995.

9. Nietzsche, Friedrich, This is the human being, translated from German: Ali Mosbah, Al-Jamal Publications, Syria, 1st Edition, 2003.

10. Nietzsche, Thus Spoke Zarathustra, translated by Felix Faris, Dar Al-Qalam, Al-Nahda Library, Baghdad, 1, 1986.

11. Henry, Lichtenberger, Nietzsche, translated by: Khalil Hindawi, Beirut Typing and Publishing House, Beirut - Lebanon, 1, 1954.

12. Janko Laverne, Nietzsche, translated by George Juha, Media Series of Contemporary International Thought, The Arab Institute for Studies and Publishing, Beirut - Lebanon, Blat T, 1973.